

المغول من الشامانية إلى اعتناق الإسلام

أ/ - بوبكر العربي
جامعة الدكتور يحيى فارس
- المدينة -

الملخص:

من الحوادث الكبرى التي ميّزت العصور الوسطى ظهور المغول في أقصى الشرق وبالضبط في هضبة منغوليا ذات البيئة القاسية، جبلية التضاريس، شحيحة المياه، يغلب على نباتها حشائش الاستبس، تعتمد شعوبها على التنقل والترحال وتمارس القنص والصيد، في هذه البيئة ظهر جنكيز خان الذي وحدّ مختلف القبائل، من مغول، وأتراك وتتار، وظلت هذه الشعوب تعيش على معتقدات وثنية متنوعة يغلب عليها المعتقد الشاماني، إلا أن دخول المغول إلى البلاد الإسلامية منذ بداية القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، جعلهم يتأثرون بتعاليم الإسلام تحت تأثير عوامل مختلفة، وما كاد ينتهي القرن 7هـ/13م، حتى انتشر الإسلام بين المغول في القبيلة الذهبية ومغول إيران وبعدها في بلاد الجغطاي، وهذا المقال يحاول الإجابة على العوامل التي أدت أي دخول المغول إلى الإسلام.

الكلمات المفتاحية:

الشامانية؛ الشعوب الإستبسية؛ منغوليا؛ المغول؛ هولكو خان.

شكل ظهور المغول علي مسرح الأحداث منذ بداية القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي تحولا كبيرا في طبيعة العلاقات بين مختلف القوى المنتشرة في ذلك الوقت سواء في العالم الإسلامي الذي تمثله الخلافة العباسية التي دب فيها الضعف وأهلكتها الانقسامات والحروب من هنا وهناك¹، وانقسمت أقاليمها الى إمارات ودويلات والدول والإمارات الأوربية الساعية الى تحقيق بعض الانتصارات العسكرية على حساب المسلمين، واستعادة بعض أملاكها في بلاد الشرق الإسلامي، فمن هؤلاء المغول الذين صاروا قوة كبرى؟ زرعت الرعب في العالم، وكيف تحولوا من معتقداتهم القديمة إلى الإسلام؟، وللإجابة على هذه الأسئلة لابد من معرفة طبيعة هذه الشعوب والغوص في مختلف التعاريف التي يمكنها أن تقود الى فهم خصوصيات تلك القبائل التي صارت قوة عظيمة.

أولا: المغول البيئية، الأصول، والمعتقد:

إن التاريخ القديم للمغول يلفه الكثير من الغموض، إذ أن مختلف الدراسات ورغم قيمتها العلمية لا تقدم أدلة كافية تستجيب لفضول الباحث، لذلك لا تخلو الكتابات والدراسات في الشرق كما في الغرب من بروز التناقض في أصولهم ومعتقداتهم، فالغرابية والتناقض والمبالغة كثيرا ما وسمت أغلب الكتابات، لذلك يميل بعضها الى الأسطورة، وتبتعد قليلا عن التاريخ، لا من حيث المنطق، أو طبيعة المنهج، ومن هنا شبّه بعض المؤرخين تاريخهم القديم كتاريخ العرب قبل الاسلام، الذي اعتمد على الرواية والتلقين أكثر من الكتابة والتدوين.

من هذا المنطلق يصعب في كثير من الأحيان لدى الدارسين تحديد الأصول الحقيقية للمغول، وايجاد الحد الفاصل بينهم وبين التتار وحتى العناصر التركية، وهنا يجد الباحث نفسه مضطرا الي الاعتماد علي مؤلفات أخرى خاصة تلك التي كتبها الصينيون القدامى، ذلك بحكم عوامل الجغرافيا وتفاعل حوادث التاريخ بين الشعوب البدوية التي تمثلها القبائل المغولية المختلفة وبين الشعوب الصينية المتحضرة فيما وراء صور الصين العظيم².

في الوثائق الصينية القديمة والتي لها الطابع الرسمي يُطلق على هذه الشعوب اسم يوان، أما الشعوب التي اندمجت معهم فيطلق عليها اسم المغول، في حين أن الذين استوطنوا منغوليا أطلق عليهم اسم التتار، أما في المصادر الإسلامية فأحيانا لا يتضح الفرق في تسمية هذه الشعوب، فهي عند البعض تحمل مسميات عدة ولكنها عادة ما تعني شعبا واحدا، لذلك لا نجد أحيانا عند البعض الحد الفاصل بين المغول والتتار، ومن هنا ظل الاختلاط بين هذه الشعوب قائما في نظر الكثير من المؤرخين حتي شكّلوا عند البعض عنصرا واحدا³.

لعل ما يؤكد ذلك ما كتبه المؤرخ الذهبي⁴ متحدثا عن جنكيز خان في معرض حديثه ما يلي "جنكيز خان طاغية التتار وملكهم الأول خرب البلاد، وأباد العباد، وليس للتتار ذكر قبله... ويبدو من هنا عدم معرفة كثير من مؤرخي المسلمين بالتاريخ الفعلي للمغول والتتار، وربما لم يجد الذهبي في الكتابات السابقة لعصره ما يمكن أن يثبت به ذلك الفرق، ككتابات ابن الأثير وابن خلكان.

أما الرمزي في كتابه تليفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان والبلغار وتاريخ التتار يذكر أن المغول والترك والتتار من أصل واحد، ويقول في ذلك: "اعلم أنّ التتار من الترك بل أصل الترك"⁵ لذلك فمعظم الكتابات التاريخية لا تقدم ما يمكن أن يكون تفسيراً وتفريقاً بين هذه الشعوب، لكن هذا لا يمنع من العودة إلي بعض المؤلفات التي كان لها أثر بالغ في كتابة تاريخ المغول، ومن الواجب علي دارس تاريخ المغول أن يعود الي المؤلفات الفارسية التي كان لها دورا كبيرا في كتابة تاريخهم، ويُعد المؤرخ الجويني⁶ صاحب كتاب تاريخ جهانكشاي أي فاتح العالم أهم من كتب في تلك المرحلة عن المغول، بجزم الفترة الطويلة التي قضاها في البلاط المغولي دون أن نغفل الدور الكبير لرشيد الدين الهمداني⁷ صاحب كتاب جامع التواريخ، فيعتبر هذا الأخير أهم من كتب عن المغول خاصة مغول إيران أو الإيلخانيين⁸، وعموما يشكل الكتابان أهمية كبرى للدارسين لتاريخ المغول، رغم انهما لا يقدمان الحقيقة الكاملة. وهنا يمكن للدارس حتى لا يضع نفسه محل انتقاد فعليه أن يستأنس بما كتبه المؤرخ الفارسي عباس إقبال في كتابه تاريخ إيران بعد الاسلام إذ يقول في ذلك "...ولم يكن لهذا الشعب إلى غاية ظهور جنكيز خان شهرة في التاريخ أو أثر...."⁹.

ويرجع الفضل في توحيد قبائل المغول والتتار إلي تموجين أو جنكيز خان¹⁰ كما تذكره أغلب المصادر والمراجع، استطاع هذا الأخير بجهده وعبقريته، وبمختلف الأنظمة السياسية والعسكرية التي وضعها ومنها قانون الياسا،¹¹ أن يحول تلك القبائل البدوية الرعوية التي لم تعرف الاستقرار إلى قوة كبرى كان لها دور بارز في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي وما بعده. حتى تغيرت الخريطة السياسية والعسكرية للعالم القديم، وقبل الحديث عن تلك القبائل واستعراض مكوناتها العرقية ومعتقداتها الدينية القديمة، للإجابة على الاشكالية التي يطرحها المقال عن كيفية تحول المغول الي الاسلام.

لاشك أن العوامل البيئية تعد عنصرا هاما في دراسة مختلف العناصر البشرية باعتبار أن الإنسان ابن بيئته، كما تؤكد معظم الدراسات الاجتماعية، لذلك لا بد أن نعرف خصائص البيئة التي جاء منها المغول، ويعد الموطن الرئيسي للمغول المنطقة الجغرافية الواقعة في وسط آسيا بين نهري سيحون¹² وجيحون¹³ من الجهة الغربية حتي الحدود الجبلية في شرق الصين، أما في الشمال فتشمل أقصى الشمال الشرقي لقارة آسيا حتى حدود سيبيريا، وبصفة عامة يمكن اعتبار هضبة منغوليا والسلاسل الجبلية المتكونة من جبال تيان شان وجبال التاي وما بينهما من سهول واسعه قاحلة حتى صحراء جوبي الجرداء، والتي هي عبارة عن سهل مسطح تغطيه طبقة صلبة من الحصباء شديدة الصلابة. إن الموقع الجغرافي للمنطقة جعلها بعيدة عن التأثيرات البحرية الرطبة مما زاد في ارتفاع درجة الحرارة صيفا وانخفاضها شتاء، كما ان الرياح القادمة من المناطق الشمالية زادت من شدة البرودة، لذلك فالمناخ الذي يسود المنطقة يمتاز بالقارية وبمدي حراري شاسع بين الشتاء والصيف والليل والنهار.

كثيرا ما ترتفع درجة الحرارة الي 37 درجة وتنخفض شتاء الي 42 درجة تحت الصفر، وطبيعة المناخ البارد جعل الكثير من الأنهار والبحيرات تتعرض لفترة تجمد طويلة، أما نبات المنطقة فيغلب عليه حشائش الاستبس التي تعتبر أكثر النباتات انتشارا في المنطقة لأنها ترتبط بعامل الحرارة وكمية التساقط، والنشاط الرعوي أكثر ما يمارسه عامة السكان، من هنا كانت حياة تلك الشعوب حياة تنقل وترحال بحثا عن الماء والعشب وأماكن الصيد، ولا نجد إلا عدد قليل

منهم يمارس نشاطا زراعي محدودا على ضفاف الأنهار التي تتحرك مياهها الجامدة في بعض الأشهر، وهنا لا يظهر الفرق الاجتماعي كبيرا بين قبائل المغول التي لم يكن لها ذكر قبل ظهور جنكيز خان.

عاشت قبائل المغول لفترة طويلة على الصيد والقتل، منقسمة الي عدة قبائل أهمها:

1- قبيلة قيات وهي قبيلة صغيرة ينتمي إليها جنكيزخان¹⁴، تتمركز في الشعب العليا لنهر الأمور حتى جبال قراقورم وهي قبيلة وثنية.

2- قبيلة الأويرات، ظلت تقيم في المناطق المحصورة بين نهر أونون وبحيرة بايكال، تميزت بكثرة عددها، ظلت وثنية أخضعها جنكيز خان لسلطته¹⁵.

3- قبائل النايمان، قبائل تركية يغلب عليها الطابع المغولي، استوطنت أقاصي الغرب بين أعالي نهر أرتش ونهر أرخون، لعب قريبا من قبائل الأيغور دورا بارزا في اعتناقها الديانة النصرانية النسطورية¹⁶، وكانت من أكثر القبائل المغولية تمدنا¹⁷، بسبب احتكاكها بقبائل الأيغور.

4- قبيلة الكراييت، تسكن الواحات الشرقية الداخلة في صحراء جوبي وجنوب بحيرة بايكال حتى صور الصين العظيم كانت من أقوى القبائل في القرنين الخامس والسادس الهجريين، اعتنق زعيمها النصرانية عام 398هـ، 1008م¹⁸

5- قبيلة المركيت ظلت تقيم علي نهر سلنجا وحنوبي بحيرة بايكال وهي قبائل شديدة البأس ميالة الي الاضطرابات والفتن لذلك شن جنكيز خان حروبا قاسية ضدها انتهت الي إبادة معظمهم¹⁹

6- قبائل التتار قبائل كثيرة العدد اشتهرت بالبأس والجبروت والقوة²⁰، ينقل في ذلك عبد المعطي الصياد عن مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمداني أن هؤلاء التتار استطاعوا أن يخضعوا أغلب القبائل حتي أصبحت كل القبائل المغولية تحمل اسم تتر أو التتار اقتداء بهم²¹

7- قبائل القارلوق، تعيش في المناطق الواقعة بين جبال التاي والمجري الأعلى لنهر ارتش، وهم من الأتراك يوصفون بجمال الوجه واستقامة القامة.

8- قبائل القرغيز، وهم قبائل تركية نزلوا على نهر ينسي وصاروا قوة منذ القرن التاسع خضعوا للمغول زمن جنكيز خان.

9- الأتراك الأيغور يذكرهم المؤرخين بقبائل الغز التركية، اعتنقوا النسطورية وكان لهم أثر كبير في الجوانب الثقافية والأدبية ومختلف الصناعات والفنون.

ومن هنا يظهر ربما ذلك التقارب العرقي والديني بين المغول والتتار، وحتى القبائل التركية، فبعض المؤرخين المسلمين ومنهم ابن الأثير لا يظهر الفرق بين المغول والتتار، لذلك نجد يتحدث عن جنكيز خان ويذكره بزعيم التتار ونجد هذا اللفظ مستعمل على نطاق واسع عند الذين كتبوا عن المغول في بداية هجومهم على العالم الإسلامي.

بصفة عامة فإن القبائل المغولية انتشرت في مناطق مختلفة من وسط آسيا، وتباينت من حيث عددها وقوتها، وتفاوتت من حيث تمدنها كما هو الحال عند قبائل الكراييت، وبعضها كان أكثر رفاهية وتنوعا كما هو الحال لدي قبائل التتار²².

رأينا فيما مر معنا أن القبائل المغولية لم تكن على دين واحد فمنها من كان على الوثنية والبعض الآخر على المسيحية النسطورية التي تسربت الى المنطقة من خلال رحلات بعض النساطرة، وهناك من تأثر بالبودية القادمة من الصين، وهنا يتضح بشكل جلي أن معتقدات المغول لم تكن واضحة، لذلك لا تظهر التعاليم والمبادئ التي يعتنقها المغول، لكن هذا لا يمنع من الاستنتاج ببعض الكتابات حول المعتقدات المغولية.

يذكر ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ متحدثا عن ديانة المغول "...وهم مع ذلك يسجدون للشمس اذا طلعت، ولا يُحرمون شيئا ويأكلون ما وجدوه من الحيوانات الميتة..."²³، في حين أن المؤرخ القزاز يذكر ديانتهم كما يأتي "...كانت الديانة الرسمية للمغول الشامانية²⁴، التي تتمثل في عبادة مظاهر الطبيعة وخاصة الشمس، وتمتاز بشدة الطاعة للكهنة..."، أما المؤرخ أرنولد فكتب عن ديانة المغول قائلا: "كانت الديانة الشامانية، الديانة القديمة للمغول، حيث كانوا يعبدون أرواح أجدادهم القدامي"²⁵، أما الباز العريني فيقول في ذلك: "وكان المغول طبقا للعقائد الشامانية، يعبدون كل شيء يسموا على مداركهم، وكل ما يرهيبهم ويدخل الخوف في قلوبهم فلهم آلهة في الجبل والشجر والشمس والقمر والرعد والبرق، وإذا أردنا ان نفسر المعتقدات المغولية فيمكن القول أن الشامانية لم تكن المعتقد الوحيد للمغول، لكنها

كانت المعتقد الأول لهم، وربما هذا الذي يُفسر عدم ارتباط الحروب الأولى للمغول بالأسباب الدينية، لأن العامل الديني لم يكن سببا مؤثرا في حروبهم. وهي ربما من الأسرار التي ساعدت جنكيز خان على النجاح في حملاته العسكرية الأولى، إذ حظى مستشاريه من البوذيين والوثنيين والنصارى والمسلمين بنفس المعاملة²⁶، لكن هذه السياسة تغيرت من فترة الي أخرى، ففي فترة حكم الخان منكو خان²⁷ مال الى الديانة النصرانية تحت تأثير أمه النصرانية التي تنتمي الي قبيلة الكراييت والتي أشرنا أنها كانت نصرانية نسطورية، وهذا التأثير هو الذي دفع هولوكو²⁸ إلى القيام بإسقاط الخلافة العباسية سنة 656هـ/1258م، وهولوكو هو الآخر كان تحت تأثير أمه وزوجته المسيحيتين، اللتين كانتا تحت تأثير المستشارين الأرمن والكرج الذين كانوا يسيطرون على بلاط الإيلخانيين، ورغم أن عهد قبلاي خان قد عرف عودة نفس السياسة الدينية التي اعتمدها جنكيز خان، إذ رفض قبلاي خان²⁹ التحول الي الديانة النصرانية رغم المحاولات المتكررة لأمه، كما أن جهود ماركو بولو فشلت في اقناع الخان الأكبر باعتناق النصرانية. وما يؤكد سياسة التوازن المتبعة من قبل قبلاي خان ما ذكره رشيد الدين فيقول في ذلك "إن قبلاي خان أعفى النصارى والمسلمين من الخراج"³⁰.

لم يكل نصارى أوروبا في التقرب من المغول وذلك لتحقيق أهداف مختلفة دينية وسياسية وحتى اقتصادية، فعلي المستوي الديني ظلت رغبة النصارى جامحة في نشر الديانة النصرانية بين المغول، في ظل المرونة التي أبداها البلاط المغولي واستعداده في جعل حكام قراقورم³¹ يميلون الي النصرانية، خاصة وان هزائم الشرق الاسلامي لازال تأثيرها قويا في نفسية نصارى الشرق³²، وطيف صلاح الدين الايوبي ظل لوقت طويل يخيم في عقول القادة الأوربيين، وهنا تقاطعت الرغبة الدينية بالأحلام السياسية، أما الهدف الاقتصادي فيمكن في تأمين الطرق التجارية الحيوية ومنها طريق الحرير أو طريق ماركو بولو³³.

تعددت محاولات النصارى في التقرب من المغول، وهنا يجدر بنا ذكر بعض تلك المحاولات، من أبرزها ما قام به بابا الكنيسة إنوسنت الرابع عام 643هـ/1245م من خلال مبعوثه الراهب الفرنسيكاني جون أوف بلانكو كارييني الذي عرض صداقة أوروبا علي المغول،

لكنه فيما يبدو فشل في مسعاه، أما المحاولة الثانية تلك التي قام بها ملك فرنسا لويس التاسع³⁴ من خلال مبعوثه الراهب الفرنسي وليم أوف روربروك وكان ذلك عام 649هـ/1251م لحضور تنصيب الخان منكو خان، ويبدو أنه لم يلق الحفاوة اللازمة وفشل في مسعاه، أما المحاولة الثالثة فتلك التي قام بها الرحالة الإيطالي ماركو بولو إلي البلاط المغولي، ورغم الحفاوة التي استقبل بها إلا أنه لم يفلح في اقناع قبلاي خان بالتحول الي النصرانية، يتضح من كل هذا أن مساعي أوروبا لم تتوقف في محاولة استقطاب المغول ودفعهم لاعتناق الديانة النصرانية.

ثانيا: انتشار الاسلام بين المغول:

بعد وفاة جنكيز خان صارت الإمارات المغولية تسير وكأنها دول مستقلة وتدرجيا فقدت قراقورم سيطرتها على باقي الأقاليم، سمحت هذه الظروف في بداية ولوج الإسلام إلى نفوس المغول، وبدأ في الانتشار بينهم، وكان مغول القفجاق أو القبيلة الذهبية، ويقصد بها الجزء الغربي من الإمبراطورية المغولية، وتضم معظم الأراضي الروسية وبلاد الفولغا والبلغار، تمتعت المنطقة بوضع استثنائي سمح لها أن تكون قوة مؤثرة في سياسة الإمبراطورية المغولية. فالخان باتو خان³⁵ ظل يتمتع بنفس المكانة التي يحظى بها الخان الأكبر في قراقورم، وقد وصف ذلك الراهب وليم روربروك في زيارته إلي قراقورم مرورا بمغول القبيلة الذهبية، ويذكر في ذلك أن باتو خان كان علي قدم المساواة مع الخان الأكبر في قراقورم، ويتضح ذلك أن بعض المصادر تذكر أن باتو خان ضغط على ابن عمه منكو حتى لا يقوم هولأكو بالهجوم على بغداد، ولم ينفذ الهجوم علي بغداد إلا بعد وفاة باتو خان، أما السبب الذي دفعه في ممارسة تلك الضغوط على منكو خان، هو تأثير أخيه بركة خان الذي اعتنق الاسلام سنة 650هـ/1354م، وكان أول من أسلم من المغول، وكانت قبيلة القفجاق أول القبائل المغولية التي تعتنق الإسلام، سمح هذا الأمر ببناء علاقة قوية بين مغول القبيلة الذهبية والمماليك وعلاقة شخصية بين بركة خان والظاهر بيبرس وزيادة التوتر بين أبناء العمومة من أبناء هولأكو في إيران ومغول القبيلة الذهبية.

أما خانبة ايران فطلت لوقت طويل تحت تأثير المسيحيين، خاصة في ظل الشعور الذي انتاب النصارى نظير حالة التسامح التي لقيها النصاري في غرب آسيا، يضاف الى ذلك التأثير القوي للنصرانية داخل بلاط الإيلخانيين³⁶، فزوجة وأم هولاءكو كانتا مسيحيين، كما أن اغلب المستشارين النافذين كانوا من الأرمن والكرج المسيحيين، وتذكر المصادر أن هؤلاء كانوا أكثر المسيحيين حقدا وكرها، للمسلمين، ولا يقولون عنفا ووحشية عن المغول، ظهرت بشكل بارز خلال غزو هولاءكو لبغداد، وتظهر تلك العلاقة القوية عند وفاة هولاءكو خان في ربيع عام 664هـ/1265م، ولحقته زوجته في صيف نفس العام، إذ تعاطمت مظاهر ومشاعر الحزن عند النصارى في كل العالم حزنا علي وفاة هذين المعززين للدين المسيحي³⁷، ورغم هذا فإن الاسلام تسرب إلى قلوب المغول في إيران لما اعتنق أحمد تكودار الإسلام وتسمي باسم المسلمين، وحمل على عاتقه نشر الاسلام بين قومه، وحماية المسلمين المضطهدين، وكفي يؤكد إسلامه عمل على إحداث تقارب بينه وبين حكام مصر من خلال بعض المراسلات، لكنه أعدم يوم 26 جمادي الأولى 683هـ/10 أوت 1284م، إلا ان التحول الحقيقي الى الاسلام ذلك الذي جاء بعد ان أسلم محمود قازان عام 694هـ/1294م، كان إسلامه حدثا عظيما، إذ كان أول من دعي إلي نشر الإسلام بين المغول، وفرض على غير المسلمين لباسا خاصا بهم وزال في عهده تقريبا الارتباط مع قراقورم، ومن هذا الوقت صار المغول أكثر ميلا للإسلام واندمجوا بذلك في المدنية الإيرانية³⁸.

أما في بلاد الجغطاي التي حكمت فيها سلالة جنكيزخان من ابنه جغطاي في المنطقة الجغرافية المتمثلة في منطقة البراري التي كانت خاضعة لإمبراطورية الخطا³⁹، وشملت هذه الخانية بلاد الأيغور، وما وراء النهر، وكاشغر وبلخ، وهي المنطقة التي عرفت عند المؤرخين بمنطقة مغول تركستان، خضعت هذه المنطقة لحكم جغطاي في الفترة الممتدة بين 624هـ-640هـ/1227م-1242م، ظل انتشار الإسلام في هذه المنطقة متأخرا إذا تمت مقارنته بانتشاره بين مغول بلاد القفجاق ومغول ايران، ويفسر هذا التأخر بعوامل مختلفة اجتماعية وسياسية واقتصادية وحتى دينية، من الناحية الطبيعية مثلت المنطقة جسر التواصل بين أجزاء الامبراطورية المغولية أما من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ظلت هذه الخانية أكثر الخانات بدواة وتأخرا، لم

تصل الي المدنية التي وصل اليها مغول ايران خاصة، أما من الناحية الدينية فظل التأثير الوثني فيها قويا، وكانت تعاليم البوذية أكثر تأثير في نفوس الناس، ويبدو السبب في ذلك واضحا إذ يعود لقرب المنطقة من الصين التي ظلت لوقت طويل تحت تأثير الشامانية والبوذية، من هنا ظهر الصراع بين الإسلام وهذه المعتقدات قوبا خاصة في ظل الانحياز الواضح للأمرء الجغطائيين للشامانية والبوذية، أما تأثير النصرانية في هذه المنطقة لم يكن بارزا كما حدث في إيران رغم أنّ المنطقة ظلت معبرا رئيسيا لمختلف البعثات الدينية النصرانية التي قدمت الي قراقورم.

يعتبر الجغطائيين أكثر المغول عدااء للإسلام، فتذكر المصادر أن جغطاي كان شديد الكره للمسلمين، وبلغت شدة عدائه حتي جعلته لا يحب ان ينطق أحد بكلمة مسلم في حضرته الا اذا كان يريد منها الحط من شأن الإسلام والمسلمين⁴⁰، كما أنه حرّم على المسلمين ذبح الحيوانات، وحرّم الوضوء وعاقب كل من يفعل ذلك، خاصة أن التعاليم المغولية كانت لا تفرض علي المغول الاستحمام إلا مرة واحدة في السنة، وهي تعاليم ظل جغطاي متمسكا بها لأنها تعتبر من التقاليد المغولية، وهذا ما يفسر الصراع الديني القوي بين الوثنية والإسلام الذي ظل قائما.

في بداية القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي بدا تأثير الوثنية يتراجع تدريجيا، إذ بدا الإسلام في الانتشار علي نطاق واسع، يعتبر عهد طرماشيرين العهد الزاهر للمسلمين خاصة بعد اعتنق هذا الأخير الإسلام، إذ يعتبره البعض المؤسس الحقيقي للدولة الإسلامية في بلاد الجغطاي⁴¹، حيث عرفت فترة حكمه الممتدة بين 726هـ/ 754هـ 1326م/1343م، انتشارا واسعا للإسلام بين مغول الجغطاي، ذكر الرحالة ابن بطوطة قصة هذا الحاكم من خلال الرحلة التي قادته الي هناك، وقد ذكره ابن بطوطة وما دار بينهما من حديث خلال إحدى الصلوات وكانت صلاة الصبح علي ما يذكر ابن بطوطة وهذا يعني أن هذا الحاكم كان ملتزما بتعاليم الإسلام، ويورد ابن بطوطة المزيد من التفاصيل عن حكمه وعدله وعلاقته بالناس⁴².

يكتنف الفترة التي أعقبت مقتل طرما شيرين بعض الغموض، فلا يعرف من تولي الحكم بعده، لكن ما هو مؤكد أنّ هذه المرحلة شهدت نشاطا مكثفا للعناصر النصرانية النسطورية والبعثات التبشيرية الكاثوليكية، مما نشط الحركة المناوئة للإسلام، لكن الوضع لم يستمر طويلا وذاك بظهور ثورة مضادة للمعاديين للإسلام تزعمها أمير مغولي اسمه خليل بمساعدة السلطان الخراساني معز الدين آل كرت، ويظهر أن حالة الصراع المتكررة هي التي أخرت انتشار الإسلام في بلاد الجغطاي.

تحققت الوحدة الدينية والسياسية لبلاد الجغطاي في عهد تغلق تيمور الذي حكم ما بين 1347م-1363م، والذي اعتنق الإسلام علي يد رحل فارسي قدم من بخارى، وقد أوردت بعض المراجع قصة إسلامه، كما يظهر عند رجب عبد الحليم في كتابه انتشار الإسلام بين المغول⁴³، وأرنولد في كتابه الدعوة إلى الإسلام⁴⁴، والقصة نوردها كما جاءت في هذين المرجعين، تقول القصة أن هذا الشيخ ويدعى جمال الدين جاء في صحبة مجموعة من التجار وفي طريقهم مروا على الأراضي التي خصصها ذلك الأمير للصيد، فأمر أن توثق أيديهم وأرجلهم وأن يمثلوا أمامه، ثم سألهم في غضب، كيف اجترأتم علي دخول هذه الأرض؟ فأجابه الشيخ أنهم غرباء ولا يعلمون انهم يجوبون أرضا محرمة، ولما علم الأمير أنهم من الفرس، قال لهم: "إنّ الكلب أغلى من أي فارسي، فاجاب الفارسي: "نعم كنا أخس من الكلب، وأبخس منه ثمنا، لو أننا لم ندين بدين الحق، ولما خلى به الشيخ شرح له مبادئ الإسلام، فأعجب بها، فوعده إذ ما عادت له مملكة أجداده، أن يدخل في الإسلام، قد تبدو هذه الرواية غريبة لكنها تعبر بشكل صادق علي مدى قوة الإسلام، وجرأة الدعوة المسلمين في تبليغ رسالته، والتمسك في نشر دينه بين الناس سواء كانوا حكاما أم محكومين.

كانت الدولة مقسمة في تلك الفترة إلى قسم وثنّي في المناطق الشرقية، وقسم مسلم في بقية المناطق، وسواء أصحت القصة السابقة أم لا، لكن في كل هذا هناك حقيقة مؤكدة، كون تغلق تيمور وحد الدولة، أما الشيخ فقد أوصى ابنه رشيد الدين أن يذكر تغلق تيمور بما وعد به، حال ما تحققت أهدافه، وقد فعل الابن ذلك الأمر، وبعد عدة محاولات نجح فيها في الوصول الى الأمير، وقدر الله ان تتحقق وحدة مملكة

الجغطاي، وان يعتنق تغلق تيمور الاسلام، وكان من نتائج ذلك تحقيق الوحدة الدينية والسياسية لإقليم تركستان.

يبقى التساؤل الأكبر في كيفية التحول الكبير للمغول إلى الإسلام في ظل الصراعات التي ظلت لفترة طويلة بين الإسلام والديانات الأخرى، وهنا يمكن الإشارة إلي بعضها، في مقدمتها تعاليم الإسلام التي جعلت الناس سواسية، صبر الدعاة وقوة تأثيرهم عن طريق التبليغ والقوة الحسنة، دور المرأة المسلمة في نشر الإسلام وجلب المغول اليه، وهنا تظهر الصورة واضحة في مغول القبيلة الذهبية، فرسالة خوارزم شاه ابنت السلطان علاء الدين خوارزم شاه، وأخت السلطان جلال الدين منكبرتي والتي كانت من سبايا المغول وتزوجها جوجي خان، ورغم أن هذا الزواج من الناحية الشرعية محرما، ورغم كل هذا كان لها الفضل الأكبر في الاحترام الذي لقيه الإسلام من أبناء جوجي خان خاصة باتو وبركة خان الذي اعتنق الإسلام كما مر معنا، يضاف الي هذا دور بعض المستشارين في البلاط المغولي، الذين لعبوا دورا بارزا في دفع المغول نحو الإسلام.

خاتمة

تركزت الصورة المرعبة التي دخل بها المغول بلاد المسلمين أثرا عميقا حتى عند المتأخرين من المسلمين، فكان ذكرهم في كل العصور مقترن بالهمجية والدمار، والجرائم الكبرى التي دونتها كتب التاريخ، فكم من المدن التي خربت والدور التي أحرقت و الرؤوس التي قطعت، وبخارى وسمرقند وبغداد تبرز تلك الصور المرعبة، ورغم كل هذا استطاع الضعفاء من المسلمين أن يروضوا المغول، ودفعوهم لتخلي عن وثنياتهم، وهنا حقق الإسلام أمرين هامين: أولهما دخول المغول في الإسلام، والذي ظهر بشكل بارز في القرون اللاحقة، حتي أنتج المغول حضارة اسلامية ارتبطت بهم، ثانيها هو الانتصار علي الديانة النصرانية والوثنية بالحجة لا بالقوة وحد السيف، وتلك عظمة الإسلام والمسلمين.

الهوامش:

- 1- عشية ظهور المغول كان العالم الإسلامي يستعد لمواجهة الحملة الصليبية الخامسة.
- 2- لوه تشي ون، صور الصين العظيم، ترجمة عمر أبو جراد، ط1، دار النشر باللغات الأجنبية بكين، 1987، ص10، وما بعدها.
- 3- قاسم عبده قاسم، عصر السلاطين المماليك، التاريخ السياسي والاجتماعي، ط1، بيروت، عين للبحوث والدراسات الإسلامية والاجتماعية، 1998، ص54.
- 4- حنكيذ خان أو تموجين زعيم المغول ولد سنة 529هـ/1155م، كان له الفضل في توحيد القبائل المغولية وأسس إمبراطورية واسعة في القرن السابع الهجري /الثالث عشر الميلادي.
- 4- الذهبي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد، دول الإسلام، تحقيق: حسن اسماعيل مروة، تقديم: محمود الأرناؤوط، ط1، دار صادر، بيروت، 1991، ص176.
- 5- الرمزي محمود، تليفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار، ط1، مج1، د. م. ط، 1980، ص33، 67.
- 6- الجويني: هو علاء الدين عطا ملك الجويني أشهر الكتاب الذين كتبوا تاريخ المغول من خلال كتابه تاريخ أي فاتح العالم ينتهي كتابه عند حوادث 681هـ/ 1283م، وقد اتم هذا الكتاب عبد الله بن فضل الله المعروف بوصاف الحضرة، والذي أكمل الحوادث حتى سنة 728هـ/1327م.
- 7- رشيد الدين فضل الله الهمذاني مؤرخ المغول الكبير ولد بهمذان سنة 645هـ/1248م، مؤرخ وطبيب لعب دورا بارزا في بلاط المغول في إيران، أشهر من كتب في تاريخ المغول من خلال كتابه الشهير جامع التواريخ، قُتل في عهد الخان أبي سعيد سنة 717هـ/1318م.
- 8- الإيلخانيين: لقب أطلق على حكام إيران بعد هولاكو ابتداء من عهد أباقا خان، وهي كلمة تركية مركبة من إيل وخان، وتعني الخان التابع، أي حاكم إحدى الولايات في الدولة، ويتبع الخان الأعظم في قراقورم.
- 9- عباس اقبال، تاريخ إيران بعد الإسلام، ترجمة وتحقيق: مجمل علاء الدين منصور، مراجعة: السباعي محمد السباعي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1988، ص345.
- 10- جنكيذخان أو تموجين على ما تذكر المصادر التاريخية ولد سنة 529هـ/ 1155م، أصبح زعيما لقومه بعد وفاة والده يوسكاي بهادر وعمره على الأرجح بين 10 و13 سنة، يعتبر المؤسس الأول للإمبراطورية المغولية.
- 11- يقصد بها الياسا أو الياساق عند البعض وهي مجموعة القوانين التي وضعها جنكيذ خان والتي هدف من خلالها الى زرع الانضباط في المجتمع وفي جيشه.
- 12- سيحون: يطلق البعض عليه سيرداريا، ينبع من الأجزاء الشمالية لجبال تيان شان، يتجه غربا حتى يلاقى نهر قرداريا القادم من فرغانة، يكون التقاء النهرين مجري مائي عريض يخترق نهر فرغانة من غربه الى شرقه.

- 13-حيون: نهر مشهور في إقليم تركستان ينبع من جبال بامير ينتهي عند الحدود الفاصلة بين أفغانستان وطجكستان يطلق عليه العرب جيحون ويسميه اليونانيون والأرمن اكسوس.
- 14-عباس اقبال ، مرجع سابق، ص346.
- 15-عبد السلام عبد العزيز فهمي، تاريخ الدولة المغولية في ايرانب د ط، دار المعارف، مصر، 1981، ص، 13.
- 16-المنسطورية: طائفة من طوائف النصاري ينتمون الى منسطور بطريق كنيسة القسطنطينية استوطنوا تركستان، عملوا على نشر تعاليمهم في إيران والهند والصين.
- 17-عبد السلام فهمي، مرجع سابق، ص15.
- 18-عباس اقبال، مرجع سابق، ص364.
- 19-عبد السلام فهمي، مرجع سابق، ص15.
- 20-نفسه، ص16.
- 21-فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ، ج1، دار النهضة العربية، القاهرة، 1980، ص36.
- 22-نفسه، ص36.
- 23-ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مراجعة وتصحيح: محمد يوسف الدقاق، ط4، بيروت، دار الكتب العلمية، 2003، ج10، ص401.
- 24-عبد المعطي الصياد، مرجع سابق، ص335، الرمزي، مصدر سابق، ص336.
- 25-أرنولد توماس، الدعوة الى الاسلام، ترجمة: ابراهيم حسن وآخرون، ط1، مكتبة النهضة العربية، 1970، ص215.
- 26-رشيد الدين فضل الله الهمداني، جامع التواريخ تاريخ خلفاء جنكيز خان من أوكتاي خان الى تيمور قان، ترجمة: فؤاد عبد المعطي الصياد، مراجعة: يحي الخشاب، ط1، دار النهضة العربية، بيروت لبنان، 1983، ص11.
- 27-منكوخان: ويكتب مانجو أو مونكا والأشهر هو منكو خان بن تولوي بن جنكيز خان الخان الأكبر الرابع من الذين جلسوا على كرسي الخانية الكبرى في قراقورم ببلاد منغوليا.
- 28-هولاكو خان واحد من أشهر القادة العسكريين المغول، حفيد جنكيز خان من ابنه تولي تم في عهده اسقاط الخلافة العباسية سنة656هـ/1258م.
- 29-قبلاي خان: تولى الحكم بعد أخيه منكو خان، تم في عهده نقل حاضرة الملك من قراقورم الى خان باليغ التي تعنى مقر الخان، والتي تسمى اليوم بكين بعد أن تم القضاء على مملكة سونغ في جنوبي الصين.
- 30-رشيد الدين ، مصدر سابق، ص11.
- 31-قراقورم عاصمة المغول ومقر بلاط الخان الأكبر.
- 32-يقصد بها موقعة حطين التي انتصر فيها صلاح الدين الايوبي على الصليبيين عام 583هـ/1187م، تم على أثرها استرجاع بيت المقدس، لازال الغرب النصراني الى يومنا هذا يذكر تلك الموقعة بألم وحسرة.

33-طريق الحرير أو طريق ماركو بولومن أشهر الطرق التجارية في العالم خلال العصور الوسطى ظل معبرا هاما للقوافل التجارية والثقافية، واعتبرت منطقة هامة لتبادل السلاح بين الصين والاتحاد السوفياتي خلال الحرب العالمية الثانية 1939م-1945م.

Rourbrouk , wi voyage dans lempirmongol.ed.payot.paris.1985, P,20-34-35.

لويس التاسع: 1226م/1270م، ابن ملك فرنسا لويس الثامن، أمه بلونش ابنة ملك قشتالة ألفونسو التاسع، حكمت باسم ابنها ورفضت الزواج رغم جمالها الفائق، يقال لها أم الملك، وبنت الملك وزوجة الملك، كان لويس التاسع من أشد أعداء المسلمين وعمل جاهدا على التقرب من المغول وطائفة الاسماعلية.

34-فرست مرعي، التحالف المغولي النصراني وأثره في سقوط بغداد، مجلة البيان، العدد 300، ب و ن، 1981.

35-باتو خان: حفيد جنكيز خان من ابنه جوجي حكم الجزء الغربي من الإمبراطورية المغولية أو ما يعرف بمغول القبيلة الذهبية وظل يحظى بمكانة هامة بين المغول حتى أنه ظل يتمتع بنفس المكانة التي يحظى بها الحكام في قراقورم.

36-سعيد عمران، المغول وأوروبا، الدار الجامعية، الاسكندرية، 1967م، ص74.

37-فرست مرعي، التحالف المغولي النصراني وأثره في سقوط بغداد، مجلة البيان، العدد 300، ص81.

38-نفسه، ص82.

39-الخطا، بكسر الخاء قبائل تركية آسيوية هجرت موطنها في شمال الصين في منتصف القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي إلى اقليم تركستان الذي كان يعاني ضعف تام الأمر الذي مكثهم من القضاء على الدولة الخاقانية سنة 536هـ/1141م.

40-رجب محمد عبد الحليم، انتشار الاسلام بين المغول، د. ت. ط، دار النهضة العربية، ص232.

41-فاسيلي فلاديمروفنتش بارتولد، مرجع تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، تع صلاح الدين عثمان هاشم، الكويت، 1401هـ-1981م، ص267.

42-ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الل، تحفة النظار و غرائب الامصار و عرائب الأسفار، ص250.

43-رجب عبد الحليم، مرجع سابق، ص242.

44-أرنولد، مرجع سابق، ص117 وما بعدها.